الفكر الاجتماعي في الشرق القديم

يقول "موريس كروزيه" في كتابه تاريخ الحضارات العام بأننا نكون أمام حضارات متعددة لا حضارة واحدة وحيدة، وليس بينها ما يدعي الرئاسة المحتومة، فهذا أمر مسلم به اليوم بين علماء الأجناس البشرية والمؤرخين أو العلماء الاجتماعيين إذ يقر هؤلاء أن لكل جماعة بشرية على شيء من النظام، مدنيتها الخاصة، كذلك من الأمور المسلم بها اليوم عدم الأخذ بالنظرية الضيقة التي تقول بتاريخ واحد للحضارة. كما نرى في ماضي البشرية وتاريخها السحيق، أن لكل حضارات مجموعة من الأفكار والنظم السياسية.

وفي هذه الرقعة الواسعة من الأرض برزت وازدهرت أقدم حضارتين بين الحضارات التي قامت على مقربة من حوض البحر المتوسط، ففي مصر وبلاد ما بين النهرين ظهرت أولى السلطنات العظيمة التي تستأثر بانتباهنا للمجهود البشري العظيم الذي بذلته، لقد كانت مصر القديمة وبلاد الرافدين حضارتين متعاصرتين تقريبا، فيرجع ظهورهما إلى حوالي سنة 3200 ق.م، بحيث يستحيل على المؤرخ اليوم أن يقطع فيمن منهما سبقت الأخرى للظهور.

كذلك في الصين القديمة ظهرت طوائف من الحكماء والفلاسفة الذين درسوا موضوعات تمس صميم الحياة الاجتماعية والأخلاقية والسياسية، وفي الهند برزت صور مختلفة من العقائد والعبادات التي كانت لها تأثيراتها على أنماط السلوك، وأساليب التفكير الاجتماعي.

أولا/ الفكر الاجتماعي في مصر القديمة:

إن عمر بلاد مصر حتى الآن في أرجح الأقوال يبلغ حوالي 5000 سنة منها 3000 سنة تخص الحضارة الفرعونية. وقد ضمت 3000 سنة الأولى ثلاثة دول هي الدولة القديمة فالدولة المتوسطة ثم الدولة الحديثة، وقد قسم المؤرخ المصري القديم "مانيتون" الأسر الحاكمة في مصر إلى 30 أسرة، ولا يزال هذا التقسيم معمولا به إلى حد الآن. وتركت الحضارة المصرية القديمة تراثا اجتماعيا غزيرا واقتصادا منظما وكذا دينيا وأخلاقيا عظيما.

وكان "هيرودوت" قد قال: "بأن مصر دون غيرها من بلاد العالم تحوي عجائبا وآثارا لا توصف، وأن مناخها منقطع النظير وأن نهر النيل فيها له طبيعة خاصة، مغايرة لأنهار العالم..." وقد قيل أن مصر هبة النيل فهي أرض صحراوية، ولولا النيل لما قامت عليها الحياة، مما ساهم في قيام حضارة عظيمة هي الحضارة الفرعونية. وترك الفراعنة آثارا عظيمة أمكن للباحثين والمختصين اكتشاف الكثير من الحياة الفكرية فيها وذلك في مظاهر ومجالات عدة.

كما أكد هيرودوت أن هاته العوامل وغيرها جعلت المصريين يختلفون عن سائر الشعوب في عاداتهم وسننهم، فالشخصية القاعدية المصرية حسب "هيرودوت" تتميز بمنطقها الواقعي وصبرها ومسالمتها واحترام الموت وتقديس الدين والمحافظة على الاستيعاب الحضاري وعبادة السلطة.

1) في مجال الفكر الديني: العقيدة مثلت جانبا هام من تفكيرهم الاجتماعي وكان لهم دور في إحلال فكرة الإله الواحد (الوحدانية) لتحل محل الآلهة المتعددة وذلك إبتداء من ثورة الكاهن "إخناتون".

إضافة إلى فكرة تقديس الملك حيث يعتبر إلها أو منحدرا من سلالة الآلهة، لذلك فإن ما يميز المجتمع الفرعوني هو تشبعه بالروح الدينية، إذ أن سلوكات الأفراد عبارة عن طقوس وتعبد، فالمزارع في مزرعته أو الحرفي في حرفته كأنه يمارس طقوسا تقربه من الإله، وكذلك الجندي الذي يقدم على الموت ويؤمن بأنه من الخطايا ان يموت على فراشه.

2) في مجال الفكر السياسي: إرتكز نظام الحكم في مصر القديمة على فكرة صار لها أثر في النظريات السياسية، كنظرية تقديس الملوك ونظرية الحق الإلهي في السلطة، وأن الملك مالك الأرض وليس للأفراد إلا حق الإستغلال.

3) في المجال الاجتماعي: إحتلت مسألة الطبقات جانبا هاما في تقسيم البناء الاجتماعي للمصريين القدامى حيث كان مقسما كما يلي:

أ-طبقة الحكام: وهي في القمة حيث يمثل الفراعنة الحكام الحكام السياسيين وفي نفس الوقت اعتبارهم آلهة أو منحدرين من الآلهة، لذلك كانت للحكام مكانة دينية مقدسة لدى بقية الطبقات.
ب-طبقة الكهنة: يشتغلون في المعابد ويعتبرون خدما لفرعون إنطلاقا من تقديسه كإله أو من سلالة الإله.
ج-طبقة الجيش: الذي يقوم على حراسة وأمن المملكة.
د-طبقة العمال: وتضم الحرفيين، الصناع والفلاحين...
هـ-طبقة العبيد: وهي تمثل أدنى طبقة في السلم الاجتماعي.
4) في مجال الفكر الأخلاقي والتربوي: ظهرت مبادئ وتعاليم على لسان الكهنة مثل تعاليم "بتاه حتب" 2500 ق.م، وتعاليم "كامنجي" وتعاليم "أمنحتب" 1300 ق.م.
وقد تمثلت التعاليم الفرعونية وانبنت على المثاليات الأخلاقية فيما يتعلق بالمعاملات ورعاية الفقراء والعجزة، ولغرس هذه التعاليم تبنت الدولة نظاما تعليميا دينيا يقوم عليه الكهنة.
5) في مجال الفكر القانوني: خلفت الحضارة المصرية القديمة الكثير من الأنظمة والتشريعات القانونية:
-ففي الدولة القديمة (3188، 1800 ق.م) كان نظام العقود المكتوبة مطبقا بدقة.
-كما نجد نظام اليمين فيما يخص الالتزام بأمور مستقبلية.
-نظام يخص المرافعات والتقاضي والمحاكم، وإعداد المحاضر الخاصة بالجلسات.
-وكانوا أول من عرف نظام عقد المعاهدات الدولية.
6) في المجال الاقتصادي: قدست حضارة مصر القديمة بعض مظاهر الحياة الاقتصادية المتمثلة في نظام الملكية والإرث والهبة والوصية وذلك في عهد الأسرة الثالثة "مينا".

ثانيا/ الفكر الاجتماعي في بلاد الرافدين (بلاد ما بين النهرين).

لو عدنا إلى التاريخ القديم ودرسنا أشهر وأعظم الحضارات لوجدنا بأن حضارة ما بين النهرين من أقدمها وأعرقها، فهذه الحضارة المدنية وصلت إلى أعلى درجات الرقي والتقدم في كل المجالات.
ومنها ظهرت أولى الكتابات باللغة المسمارية ودونت الأساطير على الألواح الحجرية، وسنت أولى القوانين ممثلة في قانون حمورابي، وتم دراسة علم الفلك ورصد النجوم، ووضعت أولى المسائل الهندسية، وبنت السدود على الأنهار، واشتهرت بفن النحت والعمار، وكانت أعظم إمبراطورية عسكرية امتدت سيطرتها من مابين النهرين إلى مصر وتخوم الصين، ونشرت المدنية والعلم والمعرفة في كل أرجاء العالم.
طبقات المجتمع ومكوناته:
وينقسم المجتمع إلى ثلاثة طبقات:
1) الأحرار: وقد اعتبرهم حمورابي العنصر الرئيسي، والعائلة لديهم نواة المجتمع، وتأسيس العائلة يمر بنفس المراحل التي نعرفها اليوم، كالخطوبة تسبق الزواج والإنجاب غاية الزواج.
2) المساكين: أي الفقراء وحياتهم اليومية هي العمل المستمر في الحقول والري والعناية بالأقنية، فيعتنون عادة بأراضي الملك أو المعبد أو الإقطاعي.
3) العبيد: وهم الطبقة الدنيا والأخيرة، وهم ملك لأسيادهم، ووصلوا إلى هذا الأمر إما عن طريق الأسر في الحروب أو البيع، ولقد أنيط بهم تنفيذ الأعمال الشاقة والمهن الوضيعة.
كما يتكون المجتمع في بلاد الرافدين قديما من:
-الملك: وكان هو رأس المجتمع، وصاحب السلطة الزمنية ويمثل الإله على الأرض، دون أن يتخذ وصف الألوهية.
-الكهنة: تميز الكهنة بسلطة قوية أيام السومريين، فالملك السومري هو الكاهن في الوقت ذاته، وأخذت سلطة رجال الدين تتضاعف، نتيجة لاعتقاد الناس بالسحر والتنجيم والطلاسم، وأصبحت استشارتهم واجبا في حال انتقال الحكم من السلف إلى الخلف، وهذا لم يمنع من الاعتراف بالملك كاهنا أعلى، دون أن تكون له

صفة إلهية، وتضم حاشيته عددا كبيرا من كهنة البلاط، وفي مرتبة أدنى كهنة المعابد ولهم مرتبة معنوية لأنهم ربطوا بين الطب والدين ويفسرون مشيئة الآلهة في اختيار العرش وفي تأدية النصح إذا كانت الظروف ملائمة للحرب.

-الكتبة والموظفون: يؤخذ الكتبة من بين الكهنة، ومن بين الكتبة يؤخذ الموظفون الكبار، ومع اتساع رقعة الإمبراطورية اشتدت الحاجة إلى الموظفين، ونشط التراسل بين العاصمة والمقاطعات، وانتشرت الكتابة المسمارية خارج بلاد الرافدين، وبلغ عدد الموظفين في أيام حمورابي عشرات الآلاف، أما الآشوريون فقد اختصروا المعاملات الإدارية وبسطوها، لأن الحكم عسكري والمعاملات الإدارية تناط بالجيش.

-الجيش: لم يتطور الجيش إلا مع الأشوريون وفي هذا الوقت وصلت الفتوحات إلى البحر المتوسط، واتسعت إمبراطورية ما بين النهرين لتكون الأكبر والأقوى، وكان يرأس الجيش الملك نفسه.

نظام الحكم والمعتقدات الدينية:

تميز نظام الحكم بأنه لملكي يستند دوما إلى أساس إلهي، واعتبر النظام الملكي هابطا من السماء، وهكذا فإن النظام يحتفظ بالمظهر التيوقراطي.

كان للملك واجبات دينية ومنها واجبات طقسية، فالملك هو الكاهن، وهو الذي يقدم شخصيا طقوس العبادة، وهو الذي يشيد ويرمم ويكرس المعابد، وهو الذي يقوم بتعيين المناصب الكهنوتية كوظيفة كبير الكهنة.

إشتهرت بلاد الرافدين بوجود الهياكل وهي المعابد التي تقوم بأدوار مهمة وخطيرة، وهي تصنف بدرجات وفئات، وكان بعضها يتميز بأنه الأكثر زينة وغنى وأحسنها تجهيزا من حيث رجال الكهنة ورجال الادارة، لذلك كان الهيكل على غرار القصر عالما مستقلا، والكثير من الفئات تتلقى نشاطات طقسية في الهياكل لكي تمارسها كالنقاشين والنساجين والخبازين وحتى البوابين، وكانت أعمال الزراعة وحدها تستثنى من هذا الواجب.

وككل شعب بدائي قدس شعب ما بين النهرين مظاهر الطبيعة، فعبدوا القوى الكامنة ورائها، كحرارة الشمس أو قوة المياه أو الطوفان أحيانا، فكان طبيعيا في بلاد خصبة أن يؤله الخصب في الدرجة الأولى.

ولقد احتفظ سكان مابين النهرين في المراحل التاريخية بآلهتهم، فنرى البابليون يحتفظون بآلهة سومر وآكاد ولكنهم جعلوا "مردوخ" إله بابل في مقدمة آلهتهم، والآشوريون جعلوا "آشور"
في المقدمة وكانت الآلهة "عشتار" ملازمة له.

ولقد تعددت الآلهة بتعدد المدن "أنو" إله السماء-"انليل" إله الأرض-"ايا" إله المياه الجوفية-"شمش" إله الشمس-"سين" إله القمر-"ادد" إله الطبيعة.

الفكر والعلوم:

خلفت حضارة ما بين النهرين الكثير من الآثار الفكرية، وحفظ معظمها في مكتبة آشور بانيبال، وتقدموا في العلم فتركوا منجزات عديدة، وعبرت عن آدابها بالعديد من الأساطير والملاحم.

فالسومريون دونوا أفكارهم فوضعوا أسس الكتابة وطورها الأكاديون من بعدهم وعرفت بالكتابة المسمارية.

وكتبت الأعمال الأدبية والتي تناولت الرثاء بشكل أناشيد.

ولقد كان التشريع والقانون من أهم هذه الآثار التي اهتموا بها وأهم ذلك "قانون حمورابي" فجمع 282 مادة تشريعية، وتبنى هذه القوانين الآشوريون ليصبح قانون الدولة الرسمي.

الطب:

كانت مهنة الطب مرادفة في أغلب الأحيان لكهنة المعابد، وكانت معلوماتهم أولية، ومن أجل تنظيم مهنة الطب فلقد وضعت شروط قاسية لمن يمتهنها بحيث كان يعاقب كل طبيب يخطئ بالوصفة أو يجري عملية تودي بحياة المريض، ولقد نظم الملك حمورابي قانون مهنة الطب، وقد اقتبس الآشوريون الوسائل العلمية الفرعونية، وفصلوا بين المفهومين الديني والعلمي، وغدا للطب مهنة مستقلة وقربهم الملوك منهم نظرا للحاجة لهم.

حمواربي وتشريعاته:

حكم حمورابي بابل بين عامي 1792-1750 ق.م وكانت البلاد دويلات منقسمة تتنازع السلطة، فوحدها مكونا إمبراطورية ضمت كل العراق والمدن القريبة من بلاد الشام حتى سواحل البحر المتوسط وبلاد عيلام ومناطق أخرى.

كان حمورابي شخصية عسكرية لها القدرة الإدارية والتنظيمية والعسكرية. ومسلته الشهيرة المنحوتة من حجر الديوريت الأسود والمحفوظة الآن في متحف اللوفر بباريس، تعتبر أقدم وأشمل القوانين في وادي الرافدين بل والعالم. وتحتوي مسلة حمورابي على 282 مادة تعالج مختلف شؤون الحياة. فيها تنظيم لكل مجالات الحياة وعلى جانب كبير من الدقة لواجبات الفرد وحقوقه في المجتمع، كل حسب وظيفته ومسؤوليته.

وعندما أعلن حمورابي قانونه أراد أن يرضي الآلهة، وأن يؤمن الحق في البلاد ويقضي على فاعل الشر والرذيلة، ويمنع القوي من إلحاق الأذى بالضعيف.

وأكد بعض المختصين أنه لا يمكننا معرفة المجتمع الميزوبوتامي معرفة حسنة إلا في عهد حمورابي، وخاصة من خلال قانونه. ويكون هذا التشريع النص الأساسي الذي يسمح لنا بتفسير مستندات لا عد لها، وعقود يختلف زمانها ومكانها.

شعوب حضارة بلاد الرافدين:

لقد كانت حضارة بلاد الرافدين في مراحلها التاريخية والتي استمرت أكثر من ثلاثة آلاف سنة حضارة واحدة غير متجزأة، لذلك نجد تعددا في التسميات جاءت نسبة لتغيير الحكم من سيطرة إلى أخرى، مثل سومري - آكادي - بابلي - كلداني - أشوري.

فالسومريون سموا نسبة لمدينة سومر، والأكاديون نسبة لمدينة آكاد، والبابليون نسبة لمدينة بابل، والأشوريون نسبة لمدينة آشور، وعندما سيطر الكلدانيون على الحكم كانت بابل هي عاصمتهم. لذلك تجدر الإشارة إلى أنه رغم تغيير الحكم من مدينة إلى أخرى، فالشعب هو نفسه والحضارة هي امتداد لهذا الشعب.

أ)السومريون: Sumerians

منذ أوائل الألف الخامس ق.م، شهد ما بين النهرين السهل الرسوبي في العراق (دلتا الرافدين) الأنتقال من القرى الزراعية إلى حياة المدن. ففي هذا السهل قامت المدن الأولى مثل "أريدو" و"أور" و"الوركاء" . وفي هذه المدن كانت بدايات التخطيط للسيطرة على الفيضانات، وإنشاء السدود وحفر القنوات والجداول. وفي هذا السهل كانت فيه شبكة القنوات معجزة من معجزات الري. مما جعل السومريون هم بناة أقدم حضارة في التاريخ. وفي حدود سنة 3200 ق.م إبتكر السومريون الكتابة ونشروها في عدة بلدان شرق أوسطية. وقامت في بلاد سومر أولى المدارس في التاريخ.

ب)الأكاديون : Accadians,Akkadian

وهم أقدم سكان بابل كان مقامهم كمقام الكهنة في مصر، وهم من أقدم الأقوام السامية التي استقرت في دلتا الرافدين (2350-2159 ق.م) بمدينة أكد المؤسسة عام 2370ق.م شمال بلاد بابل على الجانب الأيسر من نهر الفرات. عاشوا منذ أقدم العهود مع السومريين. وآلت اليهم السلطة في نحو 2350 ق.م بقيادة زعيمهم "سرجون" الأول وجعل "أكد" عاصمته عام 2800ق.م. إستطاع "سرجون" الأكدي أن يفرض سيادته على جميع مدن العراق. ثم بسط نفوذه على بلاد بابل وشمال بلاد مابين النهرين وعيلام وسوريا وفلسطين والأناضول وامتد إلى الخليج العربي، حتى دانت له كل المنطقة. وبذلك أسس أول إمبراطورية معروفة في التاريخ وجعل اللغة الأكادية تحل محل السومرية وهي لغة خليط من السامية (مادة) والسومرية (مادة). وظلت اللغة الأكادية سائدة في الشرق الأدني طوال سنة 2000ق.م، وكان يطلق عليه "شروكين" أي الملك الصادق. ويقال أن أمه كانت من نساء المعبد ولما ولدته وضعته في سلة وألقت به في مياه الفرات حيث عثر

عليه بستاني ورباه. إستهوت الطفل الإلهة "عشتار" فشملته بعطفها وحبها. شهدت البلاد في عصره انتعاشاً اقتصادياً كبيراً بسبب توسع العلاقات التجارية خاصة مع منطقة الخليج العربي. كما انتظمت طرق القوافل وكان أهمها طريق مدينة أكد العاصمة بوسط العراق الذي يصلها بمناجم النحاس في بلاد الأناضول.

ج)البابليون : **Babylion,Babylon**.

بابل مدينة عراقية كانت عاصمة البابليين أيام حكم حمورابي، حيث كان البابليون يحكمون أقاليم مابين النهرين، وحكمت سلالة البابليين الأولى تحت حكم حمورابي (1792-1750) قبل الميلاد في معظم مقاطعات ما بين النهرين، وأصبحت بابل العاصمة التي تقع على نهر الفرات. وكانت عاصمة للدولة الآشورية التي اشتهرت بحضارتها. و بلغ عدد ملوك سلالة بابل والتي عرفت بالسلالة الآمورية (العمورية) 11 ملكا حكموا ثلاثة قرون (1894 ق.م-1594 ق.م). في هذه الفترة بلغت حضارة العراق أوج عظمتها وازدهارها وانتشرت فيها اللغة البابلية بالمنطقة كلها حيث إرتقت العلوم والمعارف والفنون وتوسعت التجارة لدرجة لا مثيل لها في تاريخ المنطقة. وكانت الادارة مركزية والبلاد تحكم بقانون موحد سنه الملك حمورابي (مادة) لجميع شعوبها.

د)الكلدانيون : **Chaldeans**

في عام 612 ق.م سقطت مدينة "نينوى" بيد الأمير الكلداني "نبو بلاصر" بعد أن حاصرها، فأحرق آخر ملوكها "سن شر أشكن" نفسه في قصره، وبهذا انتهى النفوذ السياسي والعسكرى للآشوريين، وبدأت صفحة جديدة من تاريخ العراق القديم، حمل فيها الكلدانيون مشعل الحضارة في وادي الرافدين.

أشهر ملوك الكلدانيين "نبوخذ نصر" حكم 43 سنة، قضاها في تعمير مدينة بابل. وأعظم أعماله حدائق بابل المعلقة إحدى عجائب الدنيا السبع. وشيد في مدينة بابل باب "عشتار". وقد شملت أعماله جميع بلاد بابل مثل فتح الترع وبناء السدود ونشر الثقافة البابلية في جميع أرجاء المنطقة. وقد توفي سنة 562 ق.م. في عام 539 ق.م إستطاع "قورش" ملك بلاد فارس بمساعدة اليهود غزو مدينة بابل بعد سقوط الأمبراطورية الكلدانية عام 538 ق.م، وتعاقبت على حكم بلاد وادي الرافدين عدة سلالات أجنبية، منها الأخمينيون والإسكندر المقدوني والسلوقيون والفرثيون والساسانيون.

د)الآشوريون : **Assyria**

أشور أول دولة قامت في مدينة آشور في شمال بلاد مابين النهرين، وتوسعت في الألف الثانية ق.م وامتدت شمالا لمدن "نينوى"، "نمرود" و"خورسباد" ،ولقد حكم الملك "شمشي" مدينة آشور عام 1813 ق.م واستولى حمورابي ملك بابل على آشور عام 1760 ق.م، إلا أن الملك الآشوري "شلمنصر" إستولى على بابل وهزم الميتانيين عام 1273 ق.م، ثم استولت آشور ثانية على بابل عام 1240 ق.م، وفي عام 1000 ق.م إستولي الآراميون على آشور، لكن الآشوريين إستولوا على "فينيقيا" عام 774 ق.م، و"صور" عام 734 ق.م و"السامرة" عام 721 ق.م، وأسر "سارجون" الثاني اليهود في أورشليم عام 701 ق.م، وفي عام 686 ق.م دمر الآشوريون مدينة بابل، فثار البابليون على حكم الآشوريين وهزموهم بمساعدة "ميديا". عام 612 ق.م شن الآشوريون حملاتهم على باقي مناطق سوريا وتركيا وإيران.